مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني

دراسة في أنواع القراءة المعاصرة وأشكال التلقي(*)

إلهام عبد العزيز رضوان بدر
كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

الملخص:

تسعى هذه الدراسة لبحث قراءة المحدثين لمفهوم "التمثيل" عند عبد القاهر الجرجاني، ودراسة تصوراتهم ومناهجهم، فلقد كان لقضية (التمثيل) عند عبد القاهر حظ وافر من الاهتمام البحثي؛ حيث تعددت القراءات والدراسات النقدية التي عالجتها، وتنوعت هذه القراءات ما بين قراءة شارحة، وقراءة استنساخية، وأخرى تأويلية...الخ. وعلى الرغم من اختلاف ما اتسمت به هذه الدراسات من إحاطة وشمولية، أو أفكار جزئية، أو تلق مباشر دون الغوص في أعماق النص، فإنها جميعًا أسهمت في إنتاج شروح أو تفسيرات أو تأويلات حوله، بل تقديم إسهامات في إعادة بناء ذلك الخطاب. فكل قراءة تفتح بابًا لتلقٍّ جديد يختلف باختلاف القارئ، ونوع الخلفية المعرفية للتلقي، ومن ثم تباين أدوات المعرفة.

فقد انكبَّ الباحثون المحدثون على قراءة التراث العربي النقدي والبلاغي، وكان لعبد القاهر الجرجاني النصيب الأوفى من تلك الدراسات، وبخاصة ما أثاره من قضايا نقدية وبلاغية في كتابيه (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز)، وكان من بين هذه القضايا تأسيسه لعلاقة النص بقارئه، فهو لم يقف عند العلاقة بين النص وصاحبه، بل جعل المتلقي أو القارئ شريكًا في إنتاج النص، ومن هنا فقد كثرت القراءات واختلفت مناهجها وتوجهاتها، في قراءة النصوص وتلقيها، خاصة فيما يتصل بقراءة التراث البلاغي.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتركز على قضية (التمثيل)، من خلال هذه القراءات التي عالجتها، ولإبراز إسهامات هؤلاء النقاد، ولمعرفة ما وصلوا إليه من محاولات التأصيل أو التجديد في التراث البلاغي العربي.

الكلمات المفتاحية: التمثيل، عبد القاهر الجرجاني، قراءة التراث البلاغي، مفاهيم بلاغية.

(*) **مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني: دراسة في أنواع القراءة المعاصرة وأشكال والتلقي، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، يوليو ٢٠٢٤، ص ص٩-٤٢.**

Abstract

This study seeks to examine the modern scholars' reading of the concept of "representation" according to Abd al-Qahir al-Jurjani, and to study their perceptions and approaches. The issue of "representation" according to Abd al-Qahir has received ample research interest. There were many critical readings and studies that dealt with it, and these readings varied between explanatory reading, replicative reading, interpretive reading, etc. Despite the differences in the nature of these studies in terms of coverage and comprehensiveness, partial ideas, or direct reception without diving into the depths of the text, they all contributed to producing explanations, explanations, or interpretations about it, and even made contributions to rebuilding that discourse. Modern researchers have focused on reading the critical and rhetorical Arab heritage, and Abd al-Qahir al-Jurjani had the fullest share of those studies, especially the critical and rhetorical issues he raised in his two books. Among these issues was his establishment of the relationship of the text to its reader, which is not limited to the relationship between the text and its owner, but rather makes the recipient or reader a partner in producing the text. The relationship between the text and reading is a dialectical relationship. There is no text without it being read; hence, many readings, and their approaches and orientations have varied in reading and receiving texts, especially with regard to reading the rhetorical heritage.

Keywords: representation, Abdul Qaher Al-Jarjani, reading, rhetorical heritage , rhetorical concepts

مقدمة:

شُغل الدارسون المحدثون بقراءة عبد القاهر الجرجاني، بخاصة كتاباه *(دلائل الإعجاز)* و*(أسرار البلاغة)*، لما فيهما من تأصيل للمفاهيم البلاغية، وترسيخ للنزعة التحليلية الجمالية لمكوناتها ومظاهرها وطرائق اشتغالها. ولهذا كان عبد القاهر العمود الفقري لأي قراءة جديدة للتراث البلاغي والنقدي العربي، ومفتاحًا مركزيًّا لمحاولة الاقتراب من منابع الفكر اللغوي وفلسفة البلاغة وأسسها. وكان من الطبيعي أن يحتل مكانة الصدارة في القراءة المعاصرة للتراث، خاصة مع انفتاح الدارسات البلاغية والنقدية على الفكر النقدي الغربي. فقد "شهد النقد الأدبي شأنه شأن غيره من حقول النشاط الإنساني خلال هذا القرن ثورة حقيقية، تعبر عنها وتعكسها منظومة المناهج المختلفة السياقية منها والنسقية. علاوة على كثرة المؤلفات وتنوعها، وهذا ما استدعى انبثاق حقل معرفي جديد تكون مهمته مراجعة زخم الإنجازات والوقوف على الآليات

والتنبيه إلى النقائص والسلبيات، وهذا ما يمنح الشرعية لخطاب نقد النقد، ويعكس أهميته". (سعدي، ٢٠٢١، ص٢٣٧).

ولقد شغلت قضايا متنوعة أثارها عبد القاهر في كتبه، ومنها قضية التمثيل التي أخذت مساحة في النقد الأدبي الحديث ليست هينة، وتتابعت الدراسات والبحوث لمناقشتها، وبيان أوجه التشابه والاختلاف بين عبد القاهر وعلماء البلاغة المتقدمين عليه والمتأخرين، وتأتي أهمية التمثيل في التأسيس للبلاغة بصفة عامة، وعند عبد القاهر خاصة، لكونه مكونًا محوريًّا للكلام الأدبي أو الشعري خصوصًا، وبه يمتاز عن غيره من أنواع الكلام. ويعد التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، أحد الأصول الكبيرة للكلام عند الجرجاني، بحيث لا يمكن تجاوزها. مستدلًا بكلام عبد القاهر في هذا الشأن، قال عبد القاهر:" فكأن جل محاسن الكلام- إن لم نقل كلها - متفرعة عنها، وراجعة إليها، كأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها" (الجرجاني، ١٩٩١، ٢٨).

ومن جهة أخرى، يتداخل مصطلح التمثيل(*) مع غيره من المصطلحات البلاغية، وقد تنبه الجرجاني لذلك، فقد جاء ذكر التمثيل عنده في حديثه عن توضيح الفرق بينه وبين التشبيه، وأكد أن التمثيل فرع من التشبيه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلًا، كما أن التشبيه أعم والتمثيل أخص منه، وركز على إبراز خصائصه ومميزاته، ومدى تأثيره على النفس، حيث ربط بينه وبين ما يتعلق بالنفس ومكنوناتها، ووقف عند قيمته الجمالية والبلاغية ودورها في تذوق النصوص وفهمها. ويرجع تقسيم عبد القاهر للتشبيه إلى أنه:" وجد بعض أنواع التشبيه يمتاز بالدقة واللطف، والحاجة إلى شيء من

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن مصطلح التمثيل أو Representation، في الدراسات النقدية الغربية الحديثة يشير إلى عدد من المفاهيم؛ إذ تميز المعاجم الاصطلاحية الإنجليزية -على نحو ما يشير توني بنيت- إلى ثلاثة معان للتمثيل ومشتقاته، منها المعنى الرمزي، والمعنى السياسي، والمعنى المعرفي. يشير المعنى الرمزي إلى مفهوم يقترب من معنى "العلامة"، ويشير المعنى السياسي إلى فكرة الممثلين أو المتحدثين بالنيابة، أما المعنى المعرفي فيشير إلى التكوين العقلي للمعرفة، وقد كان للمفهوم في إطار معناه السياسي والمعرفي استخدامات متنوعة في إطار دراسات ما بعد الاستعمار، ودراسات التابع وغيرها، وهي مفاهيم مستجدة للمصطلح لها مرجعيات مختلفة عما نحن بصدد معالجته. را: توني بنيت: مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة، ط١، ٢٠١٠.

الترفق، وحسن التأتي، وبعضها ليس بهذه المثابة"(العدل، ١٩٥٠، ص ٢٦).

ومن هنا جاء هذا البحث ليركز على دراسة هذه القراءات، وبيان تصوراتها ومناهجها، وإبراز ما تسهم به تلك التصورات في فهم ظاهرة التمثيل عند عبد القاهر، والموازنة بينها، من خلال الاعتماد على نظرية التلقي، التي تعني بكيفية تلقي العمل الأدبي، وقدرة المتلقي على إعادة إنتاجه، من خلال عمليات الفهم، " فصارت الذات المتلقية قادرة على إعادة إنتاج النص بوساطة فعل الفهم والإدراك، ومتمكنة بذلك من تكثير المعنى، وتشقيق وجوه لا نهائية من بنيته؛ مما يجعله قادراً على الديمومة والخلود بفعل الحوارية المستمرة بين بنية النص وبنية التلقي".(صالح، ٢٠٠١، ص ٥٢).

وهنا يأتي سؤال: كيف استوعب الدرس البلاغي العربي الحديث هذه المفاهيم في قراءة التراث النقدي بخاصة عند عبد القاهر الجرجاني، لكونه واحدًا من أهم البلاغيين في القرن الخامس الهجري، وتعد نظريته حول النظم وما تفرع عنها من الركائز الأساسية التي يؤول إليها الباحثون العرب من آن لآخر لتأصيل المفاهيم الغربية الوافدة في البلاغة؛ لذا "استقطب عبد القاهر عناية الباحثين من زوايا نظر مختلفة، منهم اللساني، ومنهم البلاغي، ومنهم المشتغلون نحو النص، ومنهم الأسلوبي، وكان تلقي الدارسين لعبد القاهر من منظور الاهتمام المتغيا، وكذلك فإن حداثة عبد القاهر تكمن في هذا الاستقطاب المنفتح على عوالم غير متناهية، وهو ما جعله صاحب السبق الحداثي في تلمس (الدلائل) وتذوق (الأسرار) التي انغلقت على الكثير من الحداثيين أنفسهم"(خولة، ٢٠١٧، ١٠٥).

ولقد تخيرت لهذه الأهداف، وللإجابة عن تلك التساؤلات مجموعة منتقاة من البحوث البلاغية الحديثة، التي حاولت أن تقف عند مفهوم التمثيل عند عبد القاهر قراءة، وتأصيلًا. واختياري موضوع(التمثيل) لم يأت خبطًا عشوائيًا، وإنما جاء هذا الاختيار لما لاحظته من اهتمام كثرة من الباحثين قراءة هذا المفهوم؛ فحاولت أن أستكشف هذه البحوث والدراسات، وما الذي حاوله الباحثون في قراءة هذا المفهوم، وكيف ربطوه بالفكر الحديث، أو وقفوا به عند حدوده تأويلًا وتفسيرًا.

وقد توزعت هذه القراءات ما بين (سنة ١٩٨٦م إلى سنة ٢٠٢٢م)، ويلاحظ كثرة هذه البحوث في السنوات العشر الأخيرة (٢٠١١إلى ٢٠٢١م)، ومعنى هذا أنها

قراءات حديثة، ولا تعود إلى فترات زمنية بعيدة، وإنما في قلب القراءات الحديثة للتراث. كما تنوعت هذه الدراسات ما بين قراءات شارحة مفسرة، وقراءات استنساخية، وقراءات تأويلية. ويلاحظ كثرة الأبحاث والمقالات المقاربة والمقارنة بين آراء عبد القاهر والمعاصرين له بشأن التمثيل. وعلى الرغم من اختلاف هذه القراءات، فإنها تلتقي في أوجه تشابه، تخلق نوعًا من الامتداد والتطوير يجمع بينها.

القراءات وأشكال التلقي:

ويقوم بحثنا على مسلمة أساسية ترى أن النصوص إبداعية أو نقدية دائمًا، ما تتشكل في ظل فعل إنتاجي وعمليات متحولة ومتبدلة من التلقي، فتوضح القراءات المتوالية للنص ذاته جوانب مضمرة، وتستنهض فيه معاني مستجدة، فضلًا عن فعل التجاوب معه وتأويله وعصرنته تارة، أو إدراجه في سياق تاريخي معين. وتنطلق هذه الرؤيا تأسيسًا على نظرية التلقي Reception Theory حول كيفية القراءة، مؤكدة فكرة أن القراءة ليست عملية ثابتة، sondern بل عملية ديناميكية تتم خلالها على ما يرى هانس روبرت ياوس مجموعة من العلاقات والاتصالات مع النص، بغية بناء المعنى الذي يتخذ من أفق التوقعات التي يكونها النص للمتلقي وسيلة لإعادة بناء النص وفق فعل القراءة. ويقترح ياوس مفهوم "أفق التوقعات"، ليشير إلى نسق بين- ذاتي، أو بنية من التوقعات، أو نسق من المرجعيات، أو نظام عقلي يستحضره شخص افتراضي(=القارئ) حين يواجه نصًّا من النصوص. ومهمة الدارس هي أن "يموضع هذا الأفق حتى يتسنى لنا تقدير الخاصية الفنية في العمل"(شوبر،١٩٨٣، ص ١٠٢)

ويرى ياوس أن هذا الأفق يتغير مع مرور الوقت، مما يؤسس قراءات وأشكالًا من التلقي المستمر، وهو ما يدعوه بـ "تحول الأفق"، أو ما يسميه ياوس "بالانزياح الجمالي المقيس بردود فعل الجمهور، وبأحكام النقاد، وما يترتب عليه من نجاح فوري، أو رفض واستنكار، أو استحسان أفراد أو تفهم تدريجي أو مؤجل، وبإمكان هذا الانزياح أن يصبح مقياسًا للتحليل التاريخي"(ياوس، ٢٠٠٤، ص٤٧).

وفي ظل هذا المفهوم فإن عملية القراءة ليست فعلًا سلبيًّا بل إدراك لدلالة النص في سياق، ومن ثم يحدث شكل من التنامي الخلاق، ربما عبد القاهر نفسه كان واعيًّا به فيما

يذهب باحث معاصر، إذ رأى "أن الجرجاني أدرك بحق أن ممارسة النص إنتاجية Productivité باعتبار أن النصوص تتوالد من بعضها بعضًا، وهي لا تتوالد لتقدم نسخًا متطابقة بل لتقدم نسخًا متخالفة، وليس المقصود بالاختلاف هو التحويل التام حتى لا شبه أو لا علاقة للآخر بالأول، بل هو التحويل الذي يظل فيه النص السابق طاقة تفجير النصوص لاحقة ومصدر توليد لها، مما ينمي الصورة وتدلالها نماء مطردًا لعله لا يتأتى إلا بالخبرة الجمالية وبالجهد الفني العسير، أو أقل بالامتصاص (Absorption) والتطوير (Development) أي الإبداع (Creation)"،(المصفار، ٢٠١١، ص ٢٥٠).

ولقد تنبه الدارسون للجانب الخلاق في نظرية عبد القاهر نفسها، في إمكانية معاودة قراءتها من جانب، وما أولاه للمتلقي من عناية في التأويل من جانب آخر، فكانت تلك الخاصية مناط إعادة قراءته وتحديث هذه القراءة وفق المنهجيات المستجدة من حين لآخر. " وبذلك يعيد المعنى اكتماله في كل مرة بوساطة التأويل، بوصفه علمًا يهدف إلى ترجيح المعنى الذي يرشحه الفهم والإدراك من خلال محاورة بنى النص، لسد الفجوة وتقديم بنية تأويلية جديدة"(صالح، ٢٠٠١، ص ٥١).

والمنطق الجامع لذلك هو نظريته في النظم، التي يُعد التمثيل فرعًا من فروعها وأداة من أدواتها، يمثل شراكة بين الإنتاج والتلقي. إذ يدعو عبد القاهر إلى ضرورة إلمام القارئ بقواعد النظم، حتى يتمكن من الوصول إلى مقصد النص الأدبي، لذلك تقول لويزة شقرون:" يعتمد الجرجاني على مجموعة من المعايير في التأويل البلاغي، أولها معيار النظم، و النظم مرتبط بالمتكلم فهو الذي يقوم بإنتاج النص وفق معاني النحو ويوجهه إلى المتلقي، ولكن هذا المتلقي أيضا لابد أي يكون عارفا بالنظم ليتوصل إلى الغرض و المقصد من النص المنظوم، لأن النظم هو مقياس الناقد والبليغ عند الجرجاني فيقيم النص المقدم إليه، فكلما أغرب المتكلم في النظم كلما وجد المتلقي المتعة في البحث عن أسرار هذا النظم و خباياه، و بذلك يكون المتكلم في نظمه للكلام كالباني الماهر في تنسيق بنائه، بحيث يبهر من ينظر إليه، و يكون المتلقي هو هذا النظر الذي يرغب في البحث عن سر جمال هذا البناء والكشف عنه" (شقرون، ٢٠٢٣، ص ١٠٩).

ويحدد حسن سحلول ما ينبغي أن يتمتع به القارئ المثالي في قوله:" والخبرات التي

يمتلكها القارئ المثالي هي معرفته بما يمكننا أن نسميه؛ بالمعجم الأساسي، وبقواعد الإحالة والإسناد، وقدرته على تمييز سياق المقطع المقروء وظرفه، وعلى فهم التعابير البيانية، والصيغ الأدبية المطروقة، وألفته بالسيناريو العام وعقيدته في الحياة"(سحلول، ٢٠٠١، ص ٧٥).

مهما يكن من أمر، فإنه على الرغم من إقرار منظري علم القراءة، بتفاوت القراء أو المتلقين في استجابتهم للنصوص، وقدراتهم النوعية على تأويلها، بل ما لديهم من قدرة على تأويل النصوص والوصول إلى معانيها الظاهرة أو الخفية، فإنهم إجمالًا يرون بأن تفاوت هذه القراءات في جودتها وقدرتها على النفاذ للنصوص، ولهذا يقول رينيه فان وايدنبرغ:" وهذا ما جعلنا نقول إن هناك قراء جيّدين، وقراء ليسوا جيّدين تماما، وقراء رديئين. ولكن حتى القارئ الردّي قارئ، لأن لديه فهما ما لمحتوى النص، استيعابا ما لدلالات ما يقرأ من وحدات. ولنا أن نضيف أن المرء يقرأ حتى حين لا يكون متأكدًا من الدلالة الدقيقة لكلمات أو فقرات بعينها"(وايدنبرغ، ٢٠٢٤، ص ١٦٠)، من دون شك تطرح وجهات نظر مختلفة جديرة بالاعتبار، في أثناء حصر القراءات، وطرائق التلقي للنصوص، من حيث انضباطها المنهجي وسؤالها البحثي وتوجهها في القراءة.

ونهدف من هذه الدراسة إلى أمرين:

الأمر الأول: الوقوف على القراءات المختلفة لمفهوم التمثيل عند عبد القاهر.

الأمر الآخر: مطالعة هذه القراءات ومساءلتها في سياق البحث البلاغي؛ لمعرفة ما وصلت إليه من محاولات التأصيل أو التجديد في البحث البلاغي العربي القديم، ومدى ملاءمة مصطلحاته للتحديث مع الفكر البلاغي الجديد.

ولتحقيق ذلك، جاءت الدراسة في مبحثين؛ الأول وقفت فيه بالتفصيل على أهم معالم مفهوم التمثيل عند عبد القاهر، وحاولت تقصي التصورات المرتبطة به، ثم عقدت المبحث الآخر للقراءات المتنوعة للمفهوم، عبر تقسيمها لأشكال معينة من القراءة تسيطر على عمومها.

المبحث الأول: التمثيل عند عبد القاهر:

- **مفهوم التمثيل وأقسامه عند عبد القاهر:**

وقد تعددت أساليب عبد القاهر في التفريق والتمييز بين التشبيه الصريح والتمثيل، وكانت وجهته الأساسية في ذلك هو وجه الشبه بين الطرفين، فإما أن يكون صريحًا ظاهرًا في الطرفين وهذا يسمى (تشبيهًا صريحًا)، وإما أن يكون مؤولًا في أحدهما وهذا يسمى (تمثيلًا). ثم أخذ في توضيح ذلك بضرب الأمثلة وإبراز الفوارق بينهما. وقد أولاه اهتمامًا كبيرًا، فوجه الشبه عنده موضع التأمل والفحص في إبراز الفوارق بين (التشبيه الصريح) و(التمثيل)، فيرى أن الأحق باسم التشبيه ما كان صريحًا والاهتمام فيه قائم بنفس الصفة. ثم يقرر أسبقية هذا النوع بقوله: "ومعلوم أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق في التصور من الاشتراك في مقتضى الصفة، كما أن الصفة مقدمة في الوهم على مقتضاها"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ٧٩-٨٠)

أما عن أقسامه أفرد له مساحة ظاهرة من "الأسرار" ينظر فيها إلى أحوال المشبه به، ووجوب ذكر المشبه به، وكيف ينتزع الوجه منه، حيث يقسم وجه الشبه الذي ينتزع من المشبه به إلى أربعة أقسام:

الأول: ينتزع الشبه من المفرد كتشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة - فوجه الشبه ينتزع من العسل وهو مفرد.

الثاني: ينتزع من عدة جمل، يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٠١-١٠٢)، مثل قوله تعالى: " مَثَلَ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسفارا.. ".

الثالث: يعقد فيه التمثيل على أمرين لا يمتزجان"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٠٢)

الأخير: ويرى أن هذا النوع أقوى أنواع التمثيل؛ لأن وجه الشبه فيه متنزع من الفعل وما يتعدى إليه، وهو ما كان فيه الشبه منتزعًا من جملة صريحة أو حكم الجملة مبينًا الفروق بين عدد من التشبيهات ومبرزًا حسن كل صنف ومزيته."(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٠٨). ومن جهة أخرى، قسم الجملة بعد المشبه به إلى ثلاثة أقسام: إما أن تكون صلة، أو صفة له، أو مبتدأة"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١١٤).

لم يكتف عبد القاهر بضرب مثال واحد، وإنما ذكر عددًا من الأمثلة وأتبعها بالتحليل والتوضيح والتعليق،" بل يقدم رأيه النقدي في صنف المتذوق لجمال الشاهد"(قطاوي، ٢٠١٦، ص ٧)، ويشير إلى أن بلاغة التمثيل لا تتحقق إلا إذا حصل من عدد من الجمل لا يمكن فصلها، أو حذف إحداها؛ لأن ذلك يذهب بالمعنى "(الجرجاني، ١٩٩١، ١١٦).

ويقف عبد القاهر وقفة متأملة مع عدد من الضوابط الشكلية والتركيبية التي تمثل منابع إثارة الدهشة وتوليد العناصر الجمالية. فأشار إلى ضرورة الالتزام بالترتيب في بعض أنواع التمثيل، بحيث ينبغي الحفاظ على نسق مخصوص أو ترتيب مخصوص، وبخاصة إذا حمل الكلام توهمًا بأن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد تشبيهًا أو تمثيلًا، ثم لا يكون كذلك عند حسن التأمل "(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١١٢، ١١٣).

لقد وقف عبد القاهر طويلًا موضحًا الملامح الأساسية للتمثيل، وجلاء أهمها، وكون التمثيل يقوم على التأويل، حيث ركز على دور المتلقي في اكتشاف كوامن النص، من خلال دعوته إلى التأويل، والغوص في أعماق النص " حيث تثير لديه عملية التخيل، حيث تحصل عملية التأثير بين النص والقارئ، فالمعنى في هذه الحالة ينتج من التفاعل بينهما"(عطا الله، حامة، ٢٠٢١، ص ٤٢٦)، وتوضيح الفرق بينه وبين التشبيه الصريح، والوقوف عند أحوال المشبه به، حيث يرى تنوعها بين الإفراد والتركيب، ثم فصل القول في أنواع التركيب المختلفة.

- **تأثير التمثيل ومزيته عند عبد القاهر:**

لكن ما الأثر الجمالي والمزية الخاصة للتمثيل التي بموجبها يقوم بوظائفه أدبيًّا؟ يرى عبد القاهر فضلًا ومزية للتمثيل في حالاته كلها، حيث تتنوع الأغراض التي يأتي فيها التمثيل، سواء أكانت مدحًا، أم ذمًا، أم حجاجًا، أم افتخارًا، أم اعتذارًا، أم وعظًا...إلخ، ففي كل حالاته له فضيلة تخص سياق الكلام، والمقصد الذي يقصد المتكلم. بوجيز العبارة يرى عبد القاهر أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، ".. كساها أبهة، وكَسَبها مَنْقَبَةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشَغَفًا"(الجرجاني، ١٩٩١، ص١١٥-١١٦)، ويذهب أبو موسى في قراءته لهذا

النص إلى أن عبد القاهر لمس مسلمة عقلية فيه، وأنه يعني بقوله:(اتفق العقلاء) (أبو موسى، ١٩٩٨، ص ٣٨٧). توثيق هذه الحقيقة، وأنها ليست رأيا واحدا، وليست مما استخرجه، وإنما هي مسلمة عند العقلاء، وليست عند العلماء فحسب.

لكن هل يمكن تحديد منابع التأثير في نقاط محددة أشار إليها عبد القاهر؟ الواقع أنه وضع معالم متنوعة لافتًا الانتباه لمصادر الأثر الجمالي للتمثيل التي يمكن إجمالها فيما يلي:

- ما يقوم به التمثيل من استدعاء الرؤية البصرية والمشاهدة العينية، مما له أكبر الأثر في النفس"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٢٧-١٢٨) فقد كشف عن أفضلية التمثيل القائم على المشاهدة المرئية، التي ترى فيها الصور بالعين، على التمثيل القائم على الصور الذهنية، من حيث التأثير في النفوس وأنسها.
- ما يقوم به التمثيل من عملية كسر ألفة الأشياء عبر الربط والمماثلة، إذ يرى أن التمثيل إذا صادف غرابة، وبعدًا، كان تأثيره على النفس أقوى وأبلغ"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٣١).
- ما يقوم به التمثيل من جمع بين المتباعدين من تأليف ومزج، يقول: "وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب" (الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٣٢).
- ما يقوم به التمثيل من حث للفكر وإعمال للعقل، فلا يؤتى معناه إلا بعد مكابدة، يقول: "ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزيَّة أولى (الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٣٩-١٤٠). ويذهب أحد الباحثين إلى القول بمساواة التمثيل -بوصفه فرعًا عن التخييل- مع التأويل، بل عدهما شيئًا واحدًا. "إن التخييل هو التأويل عنده"(جبل، ٢٠١١، ص ٨٣).
- ما يقوم به التمثيل من انتزاع معان متعددة من الشيء الواحد، وهنا تظهر براعة المتلقي وقدرته على إيجاد المعاني المتنوعة، واستنطاق الكلام، واستخراج ما به من دلالات وإيحاءات، وهذه المعاني المتنوعة لا يدركها إلا الشاعر الفطن المتأمل (الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٣٦)
- ما يقوم به التمثيل ويفرضه من نظام على التركيب في ترتيب الألفاظ، وتهذينها

وصيانتها عن كل ما يخل بالدلالة، ويعوق دون الإبانة، ثم يخص الشعر بهذا الجهد والمراجعة من قائله وناقده، فالشعر ليس بالكلام السهل، وإلا لعُد كلام العامة من الشعر، ثم يفرق بين الشعر والكلام العادي، وبين متلق وآخر (الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٤٣).

- ما يتطلبه التمثيل من الوقوف على المعاني اللطيفة، وذكر أن الكلام الذي يحتاج إلى الفكر والتأمل في تحصيله، فقد بذل في إنتاجه كثير من التعب والمشقة، ويفرد حديثه عن الشعر خاصة، فكما يحتاج في تحصيله إلى الجهد والمعاناة، فالشاعر يجد مشقة في بناء شعره وحبكه، ويعد عبد القاهر البحتري من أصحاب هذا المذهب في الشعر. (الجرجاني، ١٩٩١، ص ٢٤٥)
- ما يقوم به التمثيل من عمليات تبديل وعكس، وذكر عبد القاهر موضوع جعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا في التمثيل، وأن القلب إذا كان يحدث في التشبيه الصريح بشكل ظاهر وواضح، دون أن يحدث خلل في المعنى، فإن الأمر نفسه يختلف في التمثيل (الجرجاني، ١٩٩١، ص ٢٢٥).

المبحث الثاني: التمثيل وأشكال القراءة والتلقي

تذهب مدارس القراءة الحديثة ونظريات التأويل إلى عد كل قراءة تنطوي على فعل تأويلي، فمهما تذرعنا بالعلم والموضوعية فإننا نجر النص إلى مناطق نفوذنا أو فهمنا، ونضعه في السياق الذي نراه أليق به من وجهة نظرنا. ولقد تبلورت هذه الرؤية الحداثية" نحن لا نستطيع أن نقرأ دون أن نؤول؛ يستحيل أن نقرأ دون أن نقوم بأفعال تأويل. ومن أبرز أنصار الرؤية الحداثية هانس- جورج غادامير، وبول ريكور"(وايدنبرغ، ٢٠٢٤، ص ٢٦٦).

وينشأ اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها، استجابة لاختلاف القارئ، ودرجة وعيه، وفهمه للخطاب، على نحو ما ذهب الجابري في قوله: "والخطاب باعتباره مقروء القارئ – أو مقول القول بتعبير المناطقة القدماء – هو ذلك البناء نفسه وقد أصبح موضوعاً لعملية إعادة البناء، أي نصاً للقراءة. وكيفما كانت درجة وعي القارئ بما يفعل

فإنه لا بد أن يمارس في ذلك النص ما يمارسه صاحب الخطاب عند بناء خطابه، أعني إبراز أشياء والسكوت عن أشياء، تقديم أشياء وتأخير أشياء، فيساهم القارئ هكذا في إنتاج وجهة النظر، بل إحدى وجهات النظر التي يحملها الخطاب صراحة أو ضمناً. والقارئ عندما يساهم في إنتاج وجهة نظر معينة من الخطاب يستعمل هو الآخر أدوات من عنده، هي في جملتها وجهة نظر أو جزء منها أو عناصر صالحة لتكوينها. ومن هنا اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها."(الجابري، ١٩٩٤، ص ١١).

لقد تنوعت القراءات التي تناولت التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني؛ فمنها من قدم الظاهرة تقديمًا كليًا شاملًا، ومنها من وقف على جزء منها، ومنها من اكتفي بالنقل المباشر عن عبد القاهر دون أي تدخل، وكل قراءة تناولت المفهوم، حاولت أن تقدم تفسيرًا أو تأويلًا له من وجهة نظرها، فهي تسهم في أداء المعنى، أو إنتاج معرفة جديدة،" بمعنى أن كل قراءة هي عملية تفسير أو تأويل، وكل عملية تفسير أو تأويل هي قراءة في الوقت نفسه، فكلتاهما عملية أداء لمعنى أو إنتاج له، بشرط أن نفهم أداء المعنى أو إنتاجه بوصفه محصلة لفهم الموضوع المقروء، وتعرفاً عليه واكتشافاً له، وتحديداً لمغزاه والغاية المرادة منه على نحو ما تدركها الذات القارئة في علاقتها بالموضوع المقروء"(عصفور، ١٩٩١، ص ١٣).

ويمكننا أن نميز في قراءات المحدثين لقضية التمثيل بين اتجاهات متنوعة يمكن تقسيمها على النحو التالي: القراءة التاريخية، والقراءة الاستنساخية، والقراءة التأويلية.

أولًا: القراءة التاريخية:

إن النصوص أدبية أو نقدية على حد سواء رهينة سياق تاريخي؛ أي السياق الذي نشأت فيه الأفكار، "والأطوار التي مر بها والملابسات المتعلقة به، والآراء المختلفة والأحكام التي صدرت فيه، هذا كله هو مجال الاتجاه التاريخي في النقد"(الشرباصي، ٢٠١٨، ٨٦). فكل نص هو تاريخي بشكل أو آخر، كما أن كل قراءة هي قراءة تاريخية؛ أي مستجيبة لأفق تاريخي معين ترسمه للنص. ليست هناك قراءة دائمة، هناك فقط قراءة تاريخية، ليس هناك معنى دائم أو مثالي، هناك فقط معنى وجودي، أي المعنى كما يبزغ خلال فهم القارئ التاريخي للنص التاريخي، ونحن حين نستخدم كلمة "تاريخي" إنما نريد أن نذكِّر بأن النفس كيانٌ "ثقافي" وأن المعنى هو شيءٌ ثقافي مشيَّد

بالعلامات"(مصطفى، ٢٠٠٧، ص ١٢). ولهذا تهدف القراءة التاريخية إلى تحليل النص من خلال المنظور التاريخي، وصولًا إلى مفهومه وفق لحظة نشأته، في المكان والزمان التاريخيين بالمعنى الواسع للتاريخ، وليس بغيتها المطابقة التاريخية بين النص والحقائق التاريخية.

ويمكنا العثور على هذا النوع من القراءة في بحثين تناولا قضية التمثيل عند عبد القاهر هما: *(مصطلح التشبيه التمثيلي/ دراسة تأصيلية)*، و *(حدود تشبيه التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ)*. ويظهر بجلاء من عنواني البحثين، أن فكرة التدقيق التاريخي في حدود المصطلح، وطرائق استخدامه، ومشكلات تداخله مع غيره، القضية الأساس التي انطلق منها البحثان من أجل استقصاء القول فيها.

ولا يحبط بحث *(مصطلح التشبيه التمثيلي/ دراسة تأصيلية)* هذا التوقع؛ إذ يدخل ضمن الدراسات التي تناولت التشبيه التمثيلي، من وجهة تاريخية، متتبعة جذوره، فكانت وجهته ضبط المصطلح؛ لما أصابه من اضطراب على مر العصور، فبدأ بمعالجة تداخل مصطلح التمثيل مع غيره من المصطلحات في اللغة، وقد خلص إلى أن ما يميز التشبيه التمثيلي عن غيره من المصطلحات، إنما دلالة التصوير التي ينفرد بها عن غيره. وترسيخًا لهذا الفهم التاريخي انتقل إلى معالجة تداخله مع غيره من المصطلحات، محاولًا التعرف على تاريخه عند البلاغيين، من أمثال: "الفراء٢٠٧هـ"، و"أبي عبيدة٢١٠هـ"، و"الجاحظ٢٥٥هـ"، و"قدامة بن جعفر ٣٣٧هـ"، و"العسكري ٣٨٣هـ أو ٣٩٥هـ"، و"ابن رشيق ٤٥٦هـ" (قصاب، ٢٠١٩، ص ٣٦٠- ٣٦١). وصولًا إلى (عبد القاهر) الذي كان له الدور الكبير في التفريق بين التشبيه والتمثيل.

وما يعنينا في هذا المقام أهم النقاط التي وقف عليها الباحث في معالجته المصطلح عند عبد القاهر، فقد استوقفه حرصه على نعت كلمة التشبيه (بالظاهر أو الصريح)، وعلى تأكيد الدلالة في (التشبيه) غرضها المبالغة، وإن تفاوتت، وهي في التمثيل تسعى إلى إثارة المخيلة، وجعل المتلقي طرفًا لا في تلقي الدلالة فقط، بل في إعادة إنتاجها أيضًا، وذلك عن طريق إعادة تمثل الصورة المتخيلة، والحالة الشعورية المتعلقة بها. ونوه أيضًا عن أن عبد القاهر يختلف عن اللغويين في جعل دلالة(التصوير) خاصة بالتمثيل دون غيره من الأنواع التي قد تتداخل معه، ويميل إلى أن عبد القاهر اعتمد على الدلالة اللغوية في فهمه

المصطلح، لكنه يعمم دلالة التصوير فيه، كما عمم دلالة المشابهة، لتشمل (التشبيه، والتمثيل، والاستعارة) مع خصوصية لها في التمثيل لا تتأتى في سواه، فأنت ترى فيه صورة واحدة في شكلين مختلفين. كما أشار إلى أن عبد القاهر جعل التصوير على ضربين: ضرب يكون بلا تخييل (هذا ميدانه التشبيه)، وضرب يكون بتخييل (وهذا ميدانه التمثيل).

وقد وقف على الفروق التي أقرها عبد القاهر بين الاستعارة والتمثيل، وكان من أهم هذه الفروق، هي: وضع اللفظ في اللغة، وتحديد الناتج الدلالي:" فالاستعارة شأنها شأن التشبيه قد تكون تمثيلا، وقد تكون غير تمثيل، وكونها تمثيلًا لا بد فيها أن تتحقق لها شروط التمثيل أو شروط التشبيه التمثيلي عمومًا"(قصاب، ٢٠١٩، ص ٣٦٦)، وهذا ما قاد إلى القول بأن أن (المثل) و(التمثيل) و(المماثلة) كلها ألفاظ لها الدلالة نفسها عند عبد القاهر؛ لأن الدلالة اللغوية واحدة فيها، والعلاقة بين المثل بمعناه الاصطلاحي المعروف، والتمثيل، هي علاقة عموم وخصوص، فكل مثل تمثيل، وليس كل تمثيل مثلًا، فالتمثيل يكون تشبيهًا تمثيليًا، ويكون استعارة تمثيلية، أما المثل فلا يكون إلا استعارة تمثيلية، فالجرجاني يستخدم المصطلحين في موضع الآخر(قصاب، ٢٠١٩، ص ٣٦٧). وقد التفت الباحث إلى تفرد عبد القاهر في التفريق بين التشبيه والتمثيل، بطريقة العكس، فقد ذكر الجرجاني أن هذه الطريقة لا تستقيم في التمثيل على حدها في التشبيه؛ لأنه ليس المراد إثبات أحد الطرفين هو الآخر.

وعبر مطابقة مفاهيم عبد القاهر مع غيره خلص إلى عدد من النتائج، منها: أن دلالة (المشابهة) في مصطلحات(تشبيه) و (تمثيل) و (مثل) وما شاكلها هي أحد أسباب استعمال أحدها في مكان الآخر عند اللغويين وبعض البلاغيين. أما السبب الآخر، فيتعلق بوضع المصطلح، وما تبعه من اضطراب لدى البلاغيين المتقدمين، ثم مرحلة الاستقرار لدى الجرجاني الذي عد التمثيل تصويرا خاصا طريقه التخييل. انتهى البحث إلى وضع محددات للتشبيه التمثيلي وتعريف له، ابتداء من اللغة، ومن مقولات البلاغيين وطرقهم في فهم العبارة، وتقليبها في وجوهها المختلفة، ثم فرق بينه وأنواع التشبيه والاستعارة التي يمكن أن تلبس على المتلقي، وبين صلته الوثيقة بالتشبيه الضمني الذي هو ضرب منه (قصاب، ٢٠١٩، ص ٣٧٨)

استطاع الباحث تتبع مفهوم التمثيل، منذ نشأته عند عدد من البلاغيين، والتعرف على تاريخه، ومراحل تطوره إلى أن وصل إلى مرحلة الاستقرار عند عبد القاهر، وقد اعتمد على التفسير والتحليل، وإبداء الرأي، وربط مفهوم التمثيل بغيره من المفاهيم البلاغية مثل، الاستعارة والتشبيه، وتوضيح الفرق بينهما لمنع اللبس على المتلقي.

وعلى نقيض الرؤية العامة السابقة، جاء بحث أحمد مدّح: "حدود تشبيه التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ أصل دلالة القول ومآخذه" (٢٠١٨)، من وجهة جزئية، على الرغم من أن العنوان يوحي بعكس ذلك، فإنه ركز على علم البيان بشكل عام، ولم يحظ التمثيل عند عبد القاهر إلا بالإشارة إلى جهوده المبذولة في الاهتمام به؛ حيث بدأ الباحث كلامه بتوضيح مكانة التشبيه بين أساليب القول، ومزاياه، وأثره في النفوس، كما أشار إلى اهتمام العرب به في كلامهم، شعره، ونثره، وشغفهم به، بوصفه وسيلة إلى حسن الإيضاح، والتأثير في النفوس والعقول. كما عرج على التشبيه في القرآن، وبلاغته في الحسن التي لا يضاهيها حسن. وأشار إلى أن الجانب الخفي في التشبيه، من مميزاته وحسنه عند العرب.

وما يهمنا في هذا المقام، هو معالجته لتشبيه التمثيل عند عبد القاهر، إذ جاء في نهاية بحثه، مقتصرًا على توضيح محاسنه وصفاته، فلم يركز على التمثيل عند عبد القاهر بشكل دقيق، وإنما جاء تناوله، من خلال التلميح والإشارة، ولم يفرد له مساحة في بحثه، فالبحث كله يدور في فلك علم البيان وتعريفه، وتوضيح الصورة البيانية، وتعريف التشبيه... إلخ. ومن هنا يمكننا القول بأن هذه الدراسة لم تسلط الضوء على التمثيل عند عبد القاهر بشكل مركز، وإنما جاء تركيزها على علم البيان، والصورة البيانية، والتشبيه، وفوائده، ولم يحظ التمثيل عند عبد القاهر إلا بالإشارة إلى جهوده المبذولة في الاهتمام بهذه الظاهرة. فجاءت معالجته جزئية، ناقصة، لم تتناسب مع العنوان الذي طرحه.

ثالثًا: القراءة الاستنساخية:

القراءة الاستنساخية هي نوع من القراءة التى تقوم بالتزام النص، وتقديم ما هو موجود فيه دون أي تحويل، أو إضافة، أو حذف. فهذه القراءة تقف عند الحدود المباشرة للنص، والطرح الظاهري له، ممسكة بالخيوط المشتركة له دون ادعاء تجاوز معناه، تحت

شعار المصداقية والأمانة والإخلاص للنص. مكونة نمطًا من المطابقة بين النص والقارئ، "مثل هذه القراءة نسميها قراءة استنساخية أو القراءة ذات البعد الواحد لكونها تحاول جاهدة أن تتبنى نفس البعد الذي يتحدث منه صاحب النص. ومع ذلك فهذه القراءة لا تخلو ولا يمكن أن تخلو من التأويل، بل إنما تخلو من الوعي بما تقوم به من تأويل. ذلك لأنها إذ تتكلم نيابة عن النص – وإلا كنا أمام النص وحده، أي أمام معطى غير ناطق – فهي، شاءت أم كرهت تمارس قليلا أو كثيراً من الانتقاء والحذف والإبراز والتقديم والتأخير ... الخ" (الجابري، ١٩٩٤، ص ١١). وكأنها تقول النص وتتلفظ به على نحو ما هو مرسوم مطبوع، تعيد نسخه وشرحه في حدود المعقولية.

ويدخل تحت طائفة هذا النوع من القراءة بحث فائزة سالم صالح يحيى أحمد، *"التشبيه التمثيلي في الصحيحين"*، (وهو رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد الأدبي، إشراف: الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع البلاغة (١٤٠٥هـ/ ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م/ ١٩٨٦م). فقد عالج مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني، من وجهة استنساخية، هادفًا نقل ما أراده الجرجاني، مطابقًا لما يحمله خطابه، فعلى الرغم من أن عنوان البحث يحمل نوعًا من التحديد في كلمة (الصحيحين)، فإن الباحثة قد أفردت بابًا تحدثت فيه عن التمثيل عند عبد القاهر، وقسمته إلى فصلين: الفصل الأول: التمثيل قبل عبد القاهر، والآخر: التمثيل عند عبد القاهر والمتأخرين، وقد أخذ هذا التناول طابعًا مقارنًا. فتتبعته تتبعًا واعيًا عند هؤلاء العلماء الذين كان لهم أثر في إرساء لبنات التشبيه، بدءًا بالجاحظ، مرورًا بابن قتيبة، والمبرد، وابن المعتز، وابن طباطبا، وقدامة بن جعفر، والرماني، وانتهاءً بأبي هلال العسكري.

وما يعنينا في هذا المقام، هو كيف تناولت مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني، وما الفروق الواضحة بين عبد القاهر الجرجاني، وبين غيره بشأن مفهوم التمثيل. فقد انطلقت الباحثة من التقسيم الذي قام به الجرجاني للتفريق بين التشبيه الصريح، والتمثيل، ثم ذكرت تعريف التمثيل عند عبد القاهر، والفرق بينه وبين التشبيه الصريح، وعرضت لأضربه، ومواقعه، وأسباب تأثيره، كما عرجت على التمثيل المقلوب. وأشارت إلى أن عبد القاهر الجرجاني أول من وقف عند التمثيل (أحمد، ١٩٨٦، ص٦١، ٦٢)، كما وقفت عند

اهتمام عبد القاهر بوجه الشبه، وأن عبد القاهر يقرر أن وجه الشبه في التشبيه الصريح يُرى حقيقة في كلا الطرفين، أما في التمثيل فإن وجه الشبه لا يُرى في الطرفين على وجه الحقيقة، إنما يجئ على المقاربة. ثم انتقلت إلى الحديث عن مواقع التمثيل وتأثير، حيث انطلقت من كلام عبد القاهر عن تأثير التمثيل على النفس، وتعلقه بالقلب، موضحة إعجابها بأسلوب عبد القاهر في طرح الفكرة، ومقدرته البارعة في إخراجها، مثنية على تحليله لها، وتتبعه إياه"(أحمد، ١٩٨٦، ص٧٣)، ثم تناولت التمثيل عند المتأخرين، وهم (السكاكي، الخطيب القزويني، سعد الدين التفتازاني، بهاء الدين السبكي، ابن يعقوب المغربي.

ومن هنا يمكننا الوقوف على المعالجة المقارنة التي اعتمدتها الباحثة في بحثها، موضحة في ثناياها، الفروق بين عبد القاهر، والمتقدمين عليه، والمتأخرين، في تناولهم للتمثيل، وما يميز عبد القاهر عن غيره من البلاغيين هو محاولاته الملحة على استجلاء الفكرة. يمكن القول بأن الباحثة قدمت مسحًا شاملًا لقضية التمثيل عند الجرجاني، وقد التزمت الدقة، والأمانة في دراستها، كما التزمت بتوصيل كلام عبد القاهر للمتلقي بمصداقيه شديدة، وكأن الدراسة صورة طبق الأصل من كلام الجرجاني، وهذا لا يتعارض مع ما بذلته من جهد لإبداء وجهة نظر، أو تعليق على فكرة، أو استخدامها لآليات التأويل المختلفة من تقديم أو تأخير أحيانًا، وحذف أو زيادة أحيانًا أخرى.

ثالثًا: القراءة التأويلية:

تؤسس القراءة التأويلية على تحديد معنى التأويل الذي يركز على " فهم وشرح وتفسير النص، والبحث عن المعاني التي يزخر بها الموضوع"(متولي، ٢٠١٥، ص ١٥)، وعلى حقيقة مفادها أن المؤول أو الذات القارئة صلب عملية التأويل، وأن الخلفية المعرفية والثقافية التي يركن إليها، تتحكم في طبيعة النص وتجره إلى المعاني الجديدة التي ينزاح إليها، فالتأويل في حقيقته "ما هو إلا إعادة كتابة النص من قبل المؤول"(بعداش، ٢٠٢٠، ٥٣).

ومعنى ذلك، أنها تجاوز للشرح، وانعتاق من المعاني المباشرة،"معنى ذلك أن التأويلية لا تطرح منهجية معينة، ولا طريقة محددة في القراءة، لأن القراءة لها علاقة بموهبة الفرد

وتجربته الشخصية وثقافته. ويفهم من ذلك أن كل قراءة يجب أن يكون لها انسجامها الداخلي النابع من فهم وانسجام العمل الأدبي، مع وجود انسجام خارجي متمثل في بعض المعطيات الموضوعية (التاريخية، واللغوية، إلخ...) وأن تكون القراءة مرتبطة أشد الارتباط بخاصية التأويل الذاتي والسياقي للعمل الأدبي"(متولي، ٢٠١٥، ص ١٦-١٧)، بل ومحاولة تقديم قراءة منتجة للنتاج تواكب المشكلات المثارة في زمن التأويل لا زمن النص، ليكون النص جسرًا بين الأصالة والمعاصرة، فهذه "القراءة التي تعي منذ اللحظة الأولى كونها تأويلا، فلا تتوقف عند حدود التلقي المباشر بل تريد أن تسهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يحملها، أو يتحملها الخطاب. هي لا تريد ولا تقبل الوقوف عند حدود العرض والتلخيص والتحليل.. بل تريد إعادة بناء ذلك الخطاب بشكل يجعله أكثر تماسكاً وأقوى تعبيراً عن إحدى وجهات النظر التي يحملها صراحة أو ضمنا. (الجابري، ١٩٩٤، ص ١٢).

إن مقاصد القراءة التأويلية متنوعة، فهو محاولة لإعادة موقعة النص في زمن القراءة، وإحياء عناصر القوة في النص، ولكن لا يكون ذلك إلا بتقريب النص إلى رؤية خاصة، وجعل فقراته الأشد غموضًا قابلة للفهم، ،" فالهدف من التأويل هو توضيح الفقرات المبهمة، ويفصح فيلهلم ديتاي عن الرؤية التقليدية حين يقول إن التأويل مستحيل حين يكون النص غريبًا كليًا عن القارئ، ولا جدوى منه حين لا يكون هناك شيء غريب أو مبهم ، وإن التأويل يتموضع بين طرفين – ثمة حاجة إلى التأويل حين يكون النص غريبًا بطريقة ما عن القارئ، بحيث يجعله التأويل قابلًا للفهم"(وايدنبرغ، ٢٠٢٤، ٢٤٣)،

التمثيل في ظل التلقي والقراءة:

ولقد عكفت الدراسات المعاصرة لعبد القاهر على محاولة إعادة تفسيره وتأويله وفق سياقات ومناهج متنوعة، لما استجد من مناهج بنيوية أو ما بعد بنيوية، ومن هذه المناهج ما يتصل بالتأويل ونظرية القراءة، ومن هذه الأبحاث بحث (*التمثيل وتلقيه عند عبد القاهر الجرجاني*)(٢٠٢١)، لكن قبل الدخول في تفسيرات البحث، تنبغي الإشارة إلى أن عنوان هذا البحث يوحي منذ الوهلة الأولى، بأننا إزاء دراسة تنتمي إلى نقد النقد، أو كيف تلقى القراء قضية التمثيل، فسرعان ما يتبدد هذا الإيحاء، ليأخذنا إلى القراءة التأويلية، إذ يقدم وجهة نظره، من خلال ما توصل إليه من نتائج، يتضمنها خطاب عبد

القاهر، فلم يقف عند حدود التلقي المباشر لما ذكره عبد القاهر، بل محاولة الكشف عما وراء الخطاب المباشر. فكان منطلقه أن التمثيل عند عبد القاهر يمثل طريقة خاصة من طرق تقديم المعنى، وهذا من شأنه أن يحدث تأثيرًا خاصًا لدى المتلقين، حيث يعيد التمثيل صياغة المعنى بشكل حسي يعتمد على التصوير. (بوقرومة، ٢٠٢١، ١٨٢).

مهما يكن من أمر، فقد كان منطلق الباحثة أن التمثيل عند عبد القاهر يمثل طريقة خاصة من طرق تقديم المعنى، وهذا من شأنه أن يحدث تأثيرًا خاصًا لدى المتلقين، حيث يعيد التمثيل صياغة المعنى بشكل حسي يعتمد على التصوير. ولهذا فإنه يتداخل مع التشبيه والمجاز، فذكرت أن الجرجاني في كتابه *(دلائل الإعجاز)* رأى التمثيل بوصفه ضربًا من ضروب الاستعارة، وعده صنفًا من أصناف المجاز مثله مثل الاستعارة، ثم علقت الباحثة بأن تصور عبد القاهر غير ثابت دائمًا، والتفتت الباحثة إلى توضيح مفهوم التمثيل عند عبد القاهر والمتأخرين، أمثال (ابن الأثير(٦٣٠ه)، والسكاكي(٦٢٦ه)، الخطيب القزويني(٧٣٩ه)، من خلال عقد مقارنة بينهما، مبينة أن عبد القاهر قد سبق هؤلاء كلهم في الحديث عن التمثيل، في فترة لم يكن فيها علم البيان قد استقر فيها على ما هو عليه الآن. كما عرجت على أهمية وجه الشبه عند عبد القاهر، وأن نظرته إليه تختلف عن نظرة المتأخرين بوقرومة، ٢٠٢١، ١٨٤) ووقفت الباحثة عند مستويات التمثيل عند عبد القاهر، موضحة أنها تتحدد وفقًا لدرجة التأويل فيه، حيث بعد الطرفين وعدم وضوح العلاقة بينهما حسيًا، يتفاوت بين الوضوح الذي يكاد يجعله قريبًا من التشبيه الصريح، وبين الدقة التي تتطلب قدرًا من التأويل أو مزيدًا منه عندما يصل الأمر إلى حد الغموض (بوقرومة، ٢٠٢١، ١٨٦).

وحاولت الباحثة مقاربة تلقي الصورة وجمالياتها، و دور المتلقي في العملية الإبداعية، حيث انطلقت من هذه الفكرة، مشيرة إلى دور المتلقي في إبراز جماليات الصورة، كما أشارت إلى أن العملية الإبداعية لم تقتصر على دور المؤلف وحده، بل إن المتلقي يشارك في التفاعل مع النص والإبداع فيه، ثم أشارت إلى الارتباط بين المتلقي والتمثيل من وجهة نظر الجرجاني، حيث أكد الجرجاني كثيرًا على دور المتلقين في تذوق التمثيل وفهمه، مستندة في ذلك إلى كلام عبد القاهر عن وجه الشبه الذي ينتزع من عدة أشياء يضم بعضها إلى بعض، وهنا يظهر دور المتلقي في تكوين صورة في نفسه يفكك فيها أجزاء

التركيب، ويمحو دلالاته الإفرادية، ثم يعيد صياغتها في صورة جديدة تختلف باختلاف المتلقين (الجرجاني، ١٩٩١، ٨٦).

وختمت الباحثة" كلامها بالإشارة إلى عبقرية الجرجاني، بالإضافة إلى أنه فتح الطريق أمام النقاد المحدثين في مجال دراسة النصوص وتحليلها، كما كشفت أن حديثه عن تفكيك التركيب ثم إعادة بنائه بناء جديدًا يعد تمهيدًا للمنهج التفكيكي الذي تزعمه "جاك دريدا"، ونقاد كثيرون، وكذا عن حديثه عن دور المتلقي في الإبداع يعد إرهاصًا لنظريات التلقي، ومن زعمائها "فولفغانغ أيزر" الذي تحدث عن القارئ المشارك في إنتاج المعنى، وكذا "إمبرتو إيكو" الذي تحدث عن القارئ النموذجي. "فالفاعل القرائي(القارئ) هو منجز القراءة وفارسها ومنتجها، والقراءة تتلون بألوانه وتعكس شخصيته القرائية والجمالية، فلا وجود لقراءة دون فاعل قرائي يجسدها على أرض الواقع النصي"(عبيد، ٢٠١١، ص ٤٥).

ويعد البحث الموسوم بـ*(التشبيه عند عبد القاهر بوصفه معيارًا نقديًا)* (٢٠١٣)، لعطيه أحمد أبو الهيجاء، من البحوث التي تناولت قضية(التشبيه)، عند عبد القاهر الجرجاني، من وجهة تأويلية، حاول فيه الباحث أن يقدم وجهة نظره بما يتوافق مع ما يطرحه عبد القاهر فيما يتعلق بالصورة التشبيهية، فقد توصل الباحث إلى أن الجرجاني وظف الصورة التشبيهية توظيفًا نقديا إذ جعلها أحد معايير النقد الأدبي، فابتعدت نظرته عن السطحية، وإبعاد التشبيه عن مسألة الزينة، كما أشار الباحث إلى تميز عبد القاهر للشعراء الذين يبذلون جهدًا في كلامهم، ويكسونه بمعاني الإبداع، والتجديد، والغرابة، يترتب عليه تمايز النقاد في أحكامهم النقدية، ومعاييرهم الجمالية.

وقد انطلق الباحث من تأكيد اختلاف عبد القاهر عن غيره من النقاد في نظرته للتشبيه، وأن عبد القاهر لم يقصره على الجانب البلاغي التقليدي فقط، بل جعل هذا الجانب محطة انتقال إلى جانب فكري أهم، يتمثل في الجانب النقدي. فقد صدر بحثه بقوله:" لا يكاد النقاد العرب القدماء يختلفون كثيرا فيما بينهم في نظرتهم إلى موضوع التشبيه، فقد نظروا إليه نظرة تقليدية نمطية، بوصفه زخرفة بلاغية لتزيين العبارات الشعرية تحديدًا. لذا جاء تقسيمهم للتشبيه مشابها للتقسيم السائد والدارج في كتب البلاغة العربية.

أما عبد القاهر الجرجاني فقد اختلف كثيرًا عن أولئك النقاد، إذ إنه لم يقصره على الجانب البلاغي التقليدي فقط، بل جعل هذا الجانب محطة انتقال إلى جانب فكري أهم يتمثل في الجانب النقدي، فربط التشبيه بغاية سامية وهدف شريف يتعلق بالنقد الأدبي"، (أبو الهيجاء، ٢٠٢٣، ص ٢٣). فبدأ بعرض مفهوم التشبيه لغة، وتبعه بعرض مفهومه عند البلاغيين القدماء، أمثال (الرماني ت ٣٨٦هـ)، (أبي هلال العسكري ٣٩٥هـ)، (الباقلاني٤٠٣هـ)، (ابن رشيق القيرواني٤٥٦هـ)، (على الكاتب ت ق٥هـ)، وقد انتهى الباحث، إلى وجود تطابق بين تعريفات النقاد العرب القدماء السابقين، فعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات الشكلية في تعريفاتهم، فإن المضمون واحد عند جميعهم، والمفهوم مشترك بينهم. ثم انتقل إلى مفهوم التشبيه، عند عبد القاهر، وأشار إلى أن تعريفه للتشبيه جاء مغايرًا لتعريف من سبقه، مبتعدًا عن الأسلوب التقليدي، كما أشار إلى حرص الجرجاني على ربط المشبه بالمشبه به على وجه المجاز، ونفى أن يكون ارتباطهما على وجه الحقيقة، وذكر أن التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، أحد الأصول الكبيرة للكلام عند الجرجاني، بحيث لا يمكن تجاوزها. مستدلًا بكلام عبد القاهر في هذا الشأن.

وقدم الباحث عرضًا لأقسام التشبيه عند البلاغيين القدماء، أمثال (المبرد٢٨٥هـ، ابن طباطبا ٣٢٢هـ، أبو هلال العسكري٣٩٥هـ، ابن رشيق القيرواني٤٥٦هـ، ابن سنان الخفاجي ٤٦٦هـ)، وخلص إلى القول بأن مظاهر الاشتراك تبدو واضحة بينهم حول التقسيم التقليدي لأنواع التشبيه. فمهما حاول البعض منهم الخروج على ما هو سائد، فإن أغلبهم يبقى ضمن إطار واحد حتى لو اتسع هذا الإطار بعض الشيء. وأشار الباحث إلى أن عبد القاهر تناول أقسام التشبيه بطريقة مختلفة عن غيره من النقاد، مخالفهم في طريقتهم التقليدية، ثم عرض لها عند عبد القاهر بالتفصيل (أبو الهيجاء، ٢٠٢٣، ص ٢٨).

وما يهمنا في هذا المقام، هو كيف تناول الباحث مسألة(التمثيل) عند عبد القاهر على وجه الخصوص؟، والواضح أن الباحث في تناوله للتمثيل عند الجرجاني، انطلق من تقسيم عبد القاهر للتشبيه إلى: تشبيه عام، وتشبيه خاص(التمثيل)، وذكر أن هذا النوع من التشبيه(التمثيل) أخذ منحى إبداعيًا أكثر من التشبيه العام، وأن عبد القاهر اعتمد في تقسيمه هذا على القدرة الاستيعابية التي يتسم بها الإنسان، مستندًا إلى كلام عبد القاهر

(الجرجاني، ١٩٩١، ص ٩٤). وقد أشار الباحث إلى اهتمام عبد القاهر بالمتلقي، ومراعاته الفروق الفردية بين الناس، فربط ذلك بتقسيم عبد القاهر للتشبيه، موضحًا أن في تقسيمه التشبيه إلى قسمين: العام(التقليدي)، والخاص(التمثيل)، ما يدل على مراعاته اختلاف الميول والأذواق بين المتلقين، مستدلًا ببعض ما ورد عند الجرجاني من شواهد شعرية توضح الفرق بين هذين القسمين، من حيث الوضوح، أو الحاجة إلى تأويل، وأيضًا أثر ذلك على المتلقي. كما عدد الباحث سمات التشبيه العام، وسمات التشبيه الخاص(التمثيل)، الواردة عند الجرجاني، فكان من أهم ما يميز التمثيل؛ سمة الخصوصية، واستخدام لفظ(مثل)، وكونه فرعًا، وامتناعه عن القلب، وقد استعان الباحث ببعض النماذج الشعرية التي ذكرها الجرجاني، بغرض التوضيح والفهم (أبو الهيجاء، ٢٠٢٣، ص ٣٤).

وأشار الباحث إلى اهتمام عبد القاهر بتفصيل القول في توضيح أقسام التمثيل أبو الهيجاء، ٢٠٢٣، ٣٥)، فقد أفرد له حيزًا كبيرًا من كتابه أسرار البلاغة، من خلال الشواهد، والأدلة المتعددة، وقد ربط ذلك باهتمام عبد القاهر بالمتلقي، وإرضاء ذوقه الذي يتسم بمستويات مختلفة ومتعددة.

وتظهر المعالجة المقارنة عندما يذكر الباحث الفرق بين الجرجاني وغيره من البلاغيين والنقاد القدماء، في مسألة أقسام التشبيه، فقد أشار إلى أن (ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ) الذي جاء بعد عبد القاهر قد عارض التفريق الذي قام به الجرجاني بين التشبيه والتمثيل، ونفي وجود أي فرق بينهما، منكرًا ما قام به السابقون، ثم أكد على صحة كلامه، باستناده لكلام ابن الأثير نفسه. في قوله:" وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابا مفردا، ولهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يُقال: مثلته به. وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه" (ابن الأثير، ١٩٨٣، ص ١٢٣).

وقد أبدى الباحث عدم قبوله لرأي ابن الأثير، مظهرًا تأييده لكلام عبد القاهر، في قوله:" ويبدو أن ابن الأثير نظر إلى الموضوع نظرة لغوية عامة من خلال جمعه بين قسمي التشبيه السابقين من دون أن ينظر إليهما من زاوية بلاغية أو نقدية. فعلى الرغم من صحة نظرته الأساسية (اللغوية) في ذلك، فإنه لا يمكن الوقوف عند هذا الحد أو الاكتفاء

به: لأن الجانب اللغوي يمثل قاعدة أساسية يتم الانطلاق منها إلى جوانب أخرى متعددة. وبذا يكون الجرجاني قد راعى مستوى المتلقي وذوقه، إذ لم يفرض عليه حالة إبداعية بعينها، بل فتح أمامه الطريق وأعطاه مطلق الحرية في اختيار ما يراه مناسبا، ما يؤدي إلى تحقيق الغاية من الإبداع بصورة ميسرة، بحيث لا يبقى الإبداع) في برج عاجي. (أبو الهيجاء، ٢٠٢٣، ص ٣٦).

يمكننا القول بأن هذا البحث تناول التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني بكل أقسامه، معتمدًا على إظهار الفروق الجوهرية، التي حددها الجرجاني بين التشبيه العام(التقليدي)، والتشبيه الخاص(التمثيل)، كما تناول كل قسم بالشرح والتفصيل، ولما كان موضوع بحثنا هو بيان معالجة مفهوم(التمثيل) عند عبد القاهر، فكان محور تركيز البحث، من خلال إظهار كيفية تناول الباحث له، وكان من أهم ما توصل إليه الباحث، أن الجرجاني وظف الصورة التشبيهية توظيفًا نقديًا إذ جعلها أحد معايير النقد الأدبي، فابتعدت نظرته عن السطحية، وإبعاد التشبيه عن مسألة الزينة، وتجاوز ذلك إلى فكر عميق،" وهذا التفسير هو فعالية صادرة من القارئ، مما يشعره بأنه يمتلك هذا النص المفسر، حين أخذ يشارك في إنتاجه، وهذا يجعل القراءة إبداعًا مثلما هي الكتابة"(عزام، ٢٠٢٣، ص ١٢٩).

- **التمثيل، مقاربة معرفية وحجاجية:**

وفي هذه الفترة التي نتناولها بالدراسة ظهر عكوف نحو قراءة عبد القاهر وفق نظريتين جديدتين بسطتا نفوذهما على ساحة البلاغة، وهما النظرية المعرفية في الاستعارة، ونظرية الحجاج البلاغي.

ومن المستطاع البدء بالنظرية المعرفية أو القراءة المعرفية لمفهوم التمثيل عند عبد القاهر، ومن الطريف هنا أن تأتي القراءة من زاوية تربوية جمالية، ففي البحث الموسوم بـ(القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني)(٢٠١١) لمحمد عبد الله أبو الرب ، وعبد العزيز موسى درويش، فقد تخطى الباحثان حدود التلقي المباشر، ولم يقفا عند العرض والتحليل فحسب، بل قدما وجهة نظرهما بما يحمله خطاب عبد القاهر من إلماحات تتصل بعلم النفس والتربية، وتحديدًا ما يتعلق بالإدراك، كما

أشارا إلى سبق عبد القاهر أصحاب نظرية الجشطالت.

لكن قبل هذه المعالجة هناك عكوف على مقارنة المفهوم بين البلاغيين المتأخرين، وخلص البحث من ذلك إلى تمييز عبد القاهر بين التمثيل والتشبيه على خلاف بعض البلاغيين، مثل الأثير الذي لم يفرق بينهما، بينما ذهب السكاكي مذهب عبد القاهر. كما توصل البحث إلى أن عبد القاهر يختلف عن المتأخرين، وينفرد بوجهة نظر منهجية منضبطة، تمثل إضافة بالنسبة لوجه الشبه. لكن من جهة أخرى، فإن الفارق بين وجهة نظر عبد القاهر والمتأخرين، إنما يرجع إلى كون المتأخرين اعتمدوا على التركيب هو المعيار الوحيد في التفريق بين التشبيه والتمثيل، فإذا أخذ وجه الشبه من عدة أشياء فهو تمثيل، أما عبد القاهر الجرجاني فلم يجعل التركيب معيارًا في التفريق بينهما (أبو الرب، درويش ٢٠١١، ١٩٦).

هناك وقفة في البحث مع جماليات التمثيل، وما يحدثه من أثر تحت عنوان (القيمة الجمالية للتمثيل) (أبو الرب، درويش ٢٠١١، ١٩٦)، وما فيه من القيمة البلاغية، أو الأثر الذي يحدثه التمثيل في المعاني المعقولة عندما يجسدها في حيز محسوس، وأسباب تأثير التمثيل التي ذكرها عبد القاهر، أن التصوير الحسي هو لبُّ التمثيل، وذكر ما أورده الجرجاني من نماذج تتجلى فيها روعة التجسيد الذي يحدثه التمثيل، وهو قول الشاعر صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يبقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقًا ناضرًا بعد الذي أبصرته من يبسه

فالتشبيه هنا يحتاج إلى إعمال الفكر والتأول. فقد وضحا للقارئ رؤية عبد القاهر بشأن التشبيه في هذه الأبيات، وذكرا تفسيره لها، وتوضيحه غايتها وإلى أي مدى حرص الشاعر علة تجسيد أمر معقول في صورة محسوسة، لتصبح شاخصة أماما ناظري المتلقي، يعمل فكره من أجل إدراكها بحسه.

وكانت قضية دور المتلقي عند عبد القاهر ودوره في فهم النص والإبداع فيه، من الأفكار التي عالجها البحث، فهذه القضية لاقت من الدرس الحديث حظًا وافرًا. فجاءت تحت عنوان (*دور المتلقي في إظهار جماليات الصورة*)، حيث أشار الباحثان إلى دور المتلقي

الفاعل، بوصفه ركنًا في العملية الإبداعية، في قولهما:" وبهذا أخذ المتلقي دوره الفاعل في عملية الإبداع بوصفه ركناً مهماً من أركان العملية الإبداعية، فهو الذي يمنح العمل الإبداعي خلوده ويحفظ القيمة الجمالية للنص، إذ بتنوع المتلقين وتغيرهم تبعا لتغير الزمان والمكان، تتعدد قراءات النص الواحد فيبقى حياً، ويتجدد مع كل فهم. المتلقي النبيه حينما يندغم مع النص يضفي عليه من سمات روحه ومن حصيلة تجاربه وخبراته النفسية والاجتماعية والذوقية"(أبو الرب، درويش ٢٠١١، ١٩٩)

ومن وجهة القراءة المعرفية للتمثيل عند عبد القاهر، فقد وقفا على ثلاث قضايا مهمة في بناء الصورة، من خلال ما ذكره الجرجاني في نصين من نصوصه على التمثيل:

الأولى: المزج، ودوره في التأثير، حيث يعمل على انصهار المفردات مع بعضها البعض، وتفاعلها منتجة تركيبة لغوية جديدة، هي التي تعتبر في الدلالة البلاغية.

الثانية: محو الدلالات الإفرادية، حيث ترتبط ارتباطًا وثيقًا بسياقها، فحسب رؤية عبد القاهر أن هذا المزج تبطل معه صور المفردات اللغوية.

الثالثة: مجهود المتلقي في إبداع الصورة، ويفرق عبد القاهر بين عمل القارئ المتدبر أو البلاغي اليقظ، وبين القارئ العامي. ثم فصل الحديث في ذلك اهتداء بما ذكره عبد القاهر في هذا الشأن" (أبو الرب، درويش ٢٠١١، ص٢٠٠). ومن الطريف في البحث أيضًا السؤال عن مدى توافق وجهات نظر عبد القاهر مع التربويين، في مبحث مستقل بعنوان (معالم تربوية في تحليل الجرجاني للتمثيل)، أشار الباحثان فيه إلى عبقرية عبد القاهر وتأكيده مبادئ إدراكية، قريبة من نظريات التربويين في الإدراك، "حيث تتفق إلماحاته مع نظريات التعليم والتعلم في التربية التي استقت مبادئها من علم النفس، وتحديدًا ما يتعلق بالإدراك، نستطيع أن نلمح ما كان من إلماحات عبد القاهر الجرجاني إلى هذه المبادئ، نخص منها:

- حديثهم عن ضرورة التدرج من الكل إلى الجزء(الجشطالت).
- حديثهم عن ضرورة مراعاة الفروق الفردية لدى المتعلمين.
- حديثهم عن ضرورة التدرج من المحسوس إلى المجرد.

هذه بعض المبادئ القارة المستقرة لدى التربويين في مجال التعليم التي أثبتها

البحث النظري والتجريبي في ميدان علم النفس، ففيما يتعلق بالمبدأ الأول يرى أصحاب النظرية (الجشطالتية) أن الفرد يلجأ إلى تنظيم مدركاته على صورة أشكال وعلاقات تمكنه من فهم العالم من حوله، ويرون أن الخطوة الأولى في التعلم المعرفي هي عملية الإدراك أو التعرف على الأحداث في البيئة باستخدام الحواس، حيث يدرك الفرد الأشياء إدراكا كليًا، ثم يبدأ بالتفصيل، ويضربون لذلك أمثلة من ذلك : أنك تبصر الشجرة – مثلًا – كلا متكاملًا ، وبعد إعادة النظر تبدأ بإدراك فروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها. ومن القضايا الأساسية في النظرية الجشطالتية قضية الاهتمام بالاختلاف بين الكليات والمجموع الكلي للأجزاء المكونة لهذه الكليات، فيرى أصحاب هذه النظرية أن الكليات تتسامى فوق المجموع الكلي للأجزاء المكونة لها." (أبو الرب، درويش ٢٠١١، ص ٢٠١).

لكن البحث يصل لنتائج تحتاج لكثير من الفحص والتأمل، خاصة في سياق مقارنة نظرية عبد القاهر في التمثيل والنظرية المعرفية، فلقد رأى سبق عبد القاهر أصحاب نظرية الجشطالت، استنادًا إلى قول الجرجاني:" الجملة أبدا أسبق إلى النفس من التفصيل، وأنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ولذلك قالوا: النظرة الأولى حمقاء، وقالوا: لم ينعم النظر ولم يستقص"(الجرجاني، ١٩٩١، ص ١٦٠). وذهب الباحثان أيضًا إلى اتفاق عبد القاهر والتربويين في إدراك الفروق الفردية والصفات التي يتميز بها كل فرد عن الآخر، وأهميتها في توجيه الفرد واستغلال مواهبه والاستفادة من إمكاناته، من أجل تحقيق النجاح،" ومن المؤكد أن هذا التفاوت بين المتلقين يؤدي إلى تباين في إدراك الصورة والنفاذ إلى جماليات تشبيه التمثيل، وهو الأمر الذي أعلى من شأنه التربويون المحدثون: إذ جعلوا من ركائز التعلم مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، بحيث تقدم المعلومة للمتعلمين بطرق متنوعة تتناسب وقدراتهم الإدراكية"(أبو الرب، درويش ٢٠١١، ٢٠٣) وخلص الباحثان إلى نتائج مفادها:

- أن التمثيل يعد شاهدًا من شواهد العبقرية التي تمتع بها عبد القاهر، من خلال تركيزه على تدقيق النظر في دقائق الأمور، وسبر أغوارها، وتجاوز ظاهرها.
- الكشف عن سعة أفق الإمام، من خلال إشاراته الحصيفة التي عدها النقاد من فتحا

عظيما في مجال دراسة النصوص وتحليلها.

- التوارد بين التربويين وعبد القاهر في عدة أمور، منها: ضرورة مراعاة الفروق الفردية، التدرج من الكل إلى الجزء، ومن المحسوس إلى المجرد، وحديثه عن تفضيل الجملة على التفصيل في إدراك الأمور، وأسبقية الإدراك بالحس على الإدراك بالفكر المجرد، والتفاضل بين البلغاء.

ومن منطلق الحجاج تقف الدراسة الموسومة بـ(*ظاهرة التمثيل بين الإقناع والإمتاع*) لمصطفاوي جلال، على مفهوم التمثيل من خلال مقاربته من وجهة نظرية الحجاج المعاصرة، فقد عالج التمثيل من منظور بلاغي حجاجي.

إن من طبيعة الوظيفة البلاغية للحجاج أن يقوم بعقد علاقات وتماثلات وثنائيات تبرهن على الرأي وتبت الحجة، ومن ثم فإنه " يقوم على إبراز تشابه العلاقات، مما يجعله أداة حجاجية مهمة، وهو بذلك مواجهة بين بنى متشابهة، وإن كانت من مجالات مختلفة"(قادا، ٢٠١٦، ص ١٧٣). ولقد حاول الباحث الوقوف على أهم الروابط التي تعمل على انسجام وجهي التمثيل؛ التخييلي، والعقلي، فهو يرى أن التمثيل أحد أساليب الحجاج، إذ يقول:" ولعل التمثيل، أو قياس التمثيل(analogie) من أبرز التقنيات المعتمدة في اللغة الحجاجية، وهو تقنية تربتها الأصلية البيان بتجلياته المختلفة (التشبيه- الاستعارة – المجاز...) لأن جوهرها الأساس هو علاقة المشابهة، لكن حيويتها وفاعليتها منحتها القدرة على الامتداد إلى الخطاب الحجاجي الفلسفي"(جلال، ٢٠١٥، ١١٧)، كما يرى أيضًا أن البيان قضية بلاغية ومنطقية أيضًا، وهناك تكامل بين البلاغة والمنطق في الخطاب الحجاجي. وقد عرض الباحث تصنيف الدكتور جميل عبد المجيد لاتجاهات البحث في البيان، بالتفصيل والشرح تحت عنوان فرعي هو:(الوجه الجمالي للتمثيل). ووقف عند تعليل عبد القاهر لسر المتعة التي يحدثها التمثيل في النفس مرجعًا سبب ذلك لعدد من الأمور هي:

١. إقامة الحجة: حيث يكون التمثيل حجة تثبت صحة المعنى إذا كان في أعقاب المعاني الغربية.

٢. المشاهدة: يكتسي التمثيل قيمة أيضا إذا ورد في أعقاب المعاني التي مقاربة لما عاينه المتلقي.

٣. إبداع الخيال: قد يكون سر المتعة في تلقي التمثيل اكتشافنا لفطنة الشاعر، هذه الفطنة التي تخول له القبض بإحكام على خواطر دقيقة (جلال، ٢٠١٥، ص ١٢٢).

والواضح أن الباحث في تناوله التمثيل عند الجرجاني، ركز على أهم جانب عنده يخدم فكرة بحثه، فكان جل تركيزه على تأثير التمثيل في النفس، ومحاولة إظهاره جانبي المتعة والإقناع، الناتجين عن التمثيل، فكان في تحليله السابق ما يدل على انسجام الجانبين (التخييلي، والعقلي) للتمثيل.

ولقد تميز هذا البحث عن غيره من الأبحاث المذكورة، بمعالجته الحجاجية، فأغلب الدراسات التي مرت بنا، لم تول هذا الجانب(الحجاجي) عناية كبيرة؛ وربما يرجع ذلك إلى استحواذ الجانب الجمالي في التمثيل، على نحو ما ذهب الباحث إلى القول:" بأن التأثير الجمالي يشغل الأولوية في التمثيل الشعري الأدبي، وهذا لا يلغي دوره الإقناعي، بينما في الخطاب الحجاجي والفلسفي يأخذ الإقناع في التمثيل الأولوية مع جواز اقترانه بالتأثير في النفس والوجدان.."(جلال، ٢٠١٥، ص ١٢٦).

وكانت القراءة الحجاجية موضع تناول بحث نور الدين بوزناشة، والزايدي بودرامة (حجاجية التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني) (٢٠٢٢)، مسلطًا الضوء على أنواع التشبيه، وخصوصياته التي تتضمن أبعادًا حجاجية، من خلال قصد المتكلم عند صياغة التشبيه إلى إقناع المتكلم والتأثير فيه. وكان سؤال البحث المركزي ينصب حول محاولة معرفة الأنواع التي يتجلى فيها الطابع الحجاجي أكثر من غيرها، ثم محاولة كيف استطاع الجرجاني أن يجمع بين وظيفتي الحجاج والإمتاع في تحليلاته. فانطلق البحث من فرضية مفادها، أن التشبيه عند (عبد القاهر) لا يتوقف عند حدود التصوير لتقريب المعنى للمتلقي (البعد الإمتاعي)، بل يتجاوزه لتحقيق بعد حجاجي، هدفه الإقناع أساسًا.

وتناول البعد الحجاجي للتمثيل عند عبد القاهر على وجه التحديد، تحت عنوان (حجاجية تشبيه التمثيل)، حيث بدأ بالإشارة إلى أن الجرجاني قد استفاض في حديثه عن التمثيل، متطرقًا فيه إلى مواضعه ومواقعه، وخصائصه ومزاياه، إضافة إلى تأثيره على السامع، إذ يضفي على الكلام صبغة حجاجية وجمالية، وقد وقف على بيان سر حجاجية التمثيل وجماليته، فأرجعه إلى عدد من الأسباب، هي:

١- الاستدلال على المعاني (إقامة الحجة والبرهان والدليل).

٢- المشاهدة الحسية (تجسيد المعاني).

٣- الغرابة والاستطراف (إبداع التخييل).

وفصل القول في هذه الأسباب بالشرح والتحليل، مستندين إلى كلام الجرجاني، وما ورد عنده من أمثلة توضيحية.

وهذا التناول للبعد الحجاجي للتمثيل، يتشابه -إلى حد كبير- مع التناول السابق في البحث الموسوم بـ(ظاهرة التمثيل بين الإقناع والإمتاع)، فقد وقفا على الأسباب نفسها، مع اختلاف في طريقة التعبير والصياغة، يضاف إلى ذلك أن هذا البحث لم يقتصر على حجاجية التمثيل فحسب، بل يمتد ليشمل أنواع أخرى من التشبيه، مثل (التشبيه الضمني، والتشبيه المقلوب، والتشبيه المركب). أما البحث السابق فكان جل اهتمامه وتركيزه على معالجة الجانب الحجاجي للتمثيل فقط.

الخاتمة:

لا شك أن الأبحاث السابقة وطرائقها المتنوعة في التلقي تؤكد حقيقة دور القارئ في بناء معنى النص، فنحن لم نعد أمام عبد القاهر واحد بل أمام نسخ متعددة لقراءته، بل أمام ممكنات كثيرة متنوعة لفهم التمثيل. ولم يتأت ذلك إلا عبر عمليات التلقي المتنوعة للنص نفسه، بحيث لم يعد هو ذاته في كل مرة، فكان في كل قراءة وعند كل قارئ بوصفه منتجًا للنص، له دلالة معينة، ومن ثم يمكننا أن نقول بأنه" لا قيمة للنص بدون القارئ، ودلالة النص هي التي يحددها القارئ، (ثامر، ١٩٩٤، ص ٤٤).

ونستطيع القول بأن التلقي لمفهوم التمثيل عند عبد القاهر لم يكن أسير رؤية أحادية، أو حصره في نوع الأسلوب والتصور الذي تبناها، بل كان كل اتجاه من اتجاهات التلقي بمنزلة حوار مع المفهوم، ومحاولة ردم الهوة الزمنية بين المصطلح البلاغي القديم والفهم المعاصر له، سواءً أراد القراء الإخلاص للنص في ذاته وتاريخيته ومعناه، أو العدول به نحو آفاق أرحب ومسارات مستجدة بعضها لا يخلو من طرافة الطرح، رغم ما قد يعتورها من مزالق المطابقة مع النظريات الحديثة، ورغم ما وجدناه من تقارب في الأفكار التي عالجتها الأبحاث في تصور التمثيل مفهومًا وأقسامًا ووظيفة وأثرًا، بل وتشابه

بعضها في النتائج والخلاصات النهائية، فإنه يظل لكل بحث منها ما يميزه عن الآخر، ويظل له قدرًا من الخصوصية والفرادة" فكل قراءة تتمتع بفرادة واستقلالية وحساسية قرائية خاصة لا تشبه أية قراءة سابقة عليها أو لاحقة لها، إذ لكل قراءة قوانينها وأعرافها وبنودها القرائية وسياقاتها، وبالرغم من أن كل قراءة لاحقة لنص تبدأ من منجز القراءات السابقة عليها وتفتح بواسطتها آفاقًا قرائية جديدة ومضافة"(عبيد، ٢٠١١، ص ٤٥).

وبناء على ذلك يمكننا الوصول لبعض الخلاصات، منها: قابلية مفهوم التمثيل ليكون قاعدة لفهم نظرية عبد القاهر حول النظم، وأنه في صلب هذه النظرية تقع وظيفة القارئ ودوره في بناء المعنى. يضاف لذلك أن التمثيل مفهوم متداخل الاختصاصات في حد ذاته، أي إنه مفهوم مركب وليس مفهومًا بسيطًا؛ فيمكن النظر له من وجهة معرفية وإدراكية وجمالية وبلاغية وتأويلية ولا ينبغي حصر المفاهيم البلاغية في زاوية ضيقة لا تعدو مجرد المحسنات وضروب التزيين العاري من القيم المعرفية الكامنة فيها.

ومن جهة أخرى، فإن حاجتنا لقراءة التراث البلاغي وفق آليات جديدة لا غنى عنها؛ لأنه بفضل التأويل وإعادة قراءة التراث يمكن لهذه البلاغة أن تكون ضمن مفاهيمنا في التحليل وتظل حية نابضة بالحيوية. ولا شك أن البلاغة العربية في صروحها الشامخة عند عبد القاهر وغيره، تقدم مدونة لا غنى عنها يمكنها أن تزلل عواقب الاستيراد للمفاهيم وما يتبعه من عجمة وغربة في الفهم والمقاربة. إن كل تراث يحيا بفضل القراءة والتلقي، وبفعل القراءة تحيا القراء والنصوص.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

الجرجاني. ع: أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩١م.

ـــــــــ: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط٥، ٢٠٠٤م.

ثانيًا: المراجع العربية:

أبو موسى. م: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٣٨٧.

بعليفة. ر: الخطاب النقدي العربي الحديث، قراءة في حلقاته النقدية (طه حسين- شكري عياد- جابر عصفور)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٩م، ص٣٢٢.

ثامر. ف: اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح، في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٤٤م، ص٤٤.

الجابري. م: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، مارس ١٩٩٤م، ص١١-١٢.

حمدي. م: التخييل عند عبد القاهر الجرجاني، ضمن كتاب أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس،١٩٩٨م.

سحلول. ح: نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م، ص٧٥.

السيوطي. ج: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة ٢، ١٩٧٩م، ص١٠٦.

صالح. ب: نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص٥١.

عبيد. م: إشكالية القراءة والتلقي: النظرية والممارسة، ضمن كتاب أعمال ندوة القراءة وإشكالية المنهج، جامعة نزوى، مركز الخليل بن أحمد للدراسات العربية، جمعها وقدم له: د. الهادي الجطلاوي، دار كنوز المعرفة، ط١/ ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص٤٥.

العدل. ع: دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل- والتقديم والتأخير، ضبطها وعلق حواشيها: عبد السلام أبو النجا سرحان، دار الفكر الحديث للطبع والنشر، ١٩٥٠م، ص٢٦.

عزام.م: تحليل الخطاب النقدي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٢٣م، ص١٢٩.

عصفور. ج: قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ط١، قبرص، ١٩٩١م، ص١٣.

قادا. ع: بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص١٧٣.

متولي. ن: القراءة والتلقي، دراسة تطبيقية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، ٢٠١٥م، ص٤٩-٥٠.

مصطفى. ع: فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، رؤية، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٢.

المصفار. م: السرقات الشعرية عند الجرجاني من خلال التناص، ضمن كتاب أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس،١٩٩٨م، ص٢٥٠.

ثالثًا: المراجع المترجمة:

وايدنبرغ. ر: إبستيمولوجيا القراءة والتأويل، ترجمة: نجيب الحصادي، منشورات نادي الكتاب، السعودية، الرياض ط١، ٢٠٢٤م، ص١٦٠-١٦١،٢٦٦.

ياوس.ه: جمالية التلقي، من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ترجمة: رشيد بنحدو، المشروع القومي للترجمة- مصر، ط١- ٢٠٠٤م، ص٤٧.

رابعًا: المجلات والدوريات:

أبو الرب، ودرويش: القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة بحوث التربية النوعية، جامعة المنصورة، عدد خاص (٢٠)، فبراير٢٠١١م.

أبو الهيجاء. ع: التشبيه عند عبد القاهر الجرحاني (بوصفه معيارًا نقديًا)، عالم الفكر، العدد١، مجلد ٤٢يوليو- سبتمبر٢٠١٣.

بعداش. ن: التأويل والقراءة التأويلي، مجلة Ex Professo، المجلد ٥، العدد ١، ٢٠٢٠، ص ٥٣.

بوزناشة، و بودرامة: حجاجية التشبيه عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه أسرار البلاغة، مجلة المنهل، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، الجزائر، مجلد٨، العدد١، ٢٠٢٢م.

بوقرومة. ح: التمثيل وتلقيه عند عبد القاهر الجرجاني: مجلة نوميروس الأكاديمية، المجلد الثاني، العدد الثاني٢٠٢١م.

جبل. ش: القراءة النقدية عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، العراق، العدد١٤٠، ٢٠١١م، ص٨٣.

جلال. م: ظاهرة التمثيل بين الإقناع والإمتاع، المركز الجامعي عين تموشنت، الجزائر، مجلة دراسات، ديسمبر٢٠١٥م.

خولة.ك: عبد القاهر الجرجاني في دراسات النقاد العرب المحدثين، مجلة فصل الخطاب، المجلد الخامس، العدد ١٨، جوان٢٠١٧م، ص١٠٥.

سعدي. ج: نقد النقد، قراءة في استراتيجياته ورهاناته المعرفية، مجلة الآداب، المجلد٢١، العدد١، ديسمبر٢٠٢١م، ص٢٣٧.

الشرباصي.ن: التلقي النقدي المنهجي(التاريخي) وعمق القراءة في شعر نزار قباني، مجلة كلية الآداب، جامعة بور سعيد، العدد الحادي عشر ٢٠١٨م، ص٨٦.

شوبر. ر: تاريخية الأدب موضوعًا لدراسة تاريخ الأدب، ترجمة: إقبال أيوب، الثقافة الأجنبية، العدد الأول، شتاء ١٩٨٣، ص١٠٢.

عطا الله، حامة: فينومنيولوجيا القراءة عند آيزر، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد ١٠، عدد١، ٢٠٢١م، ص٤٢٦.

قصاب. ز: مصطلح التشبيه التمثيلي (دراسة تأصيلية)، مجلة مجمع اللغة العربي الأردني، مج٤٣، ع٩٦، يونيو٢٠١٩م.

قطاوي. ل: جماليات النقد من منظور المعيارية عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة اللغة الوظيفية، جامعة حسيبة بن بو على بالشلف، مخبر نظرية اللغة الوظيفية، الجزائر، العدد٤، ٢٠١٦م، ص٧.

مدّح. أ: حدود تشبيه التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني٤٧١هـ، أصل دلالة القول ومآخذه، إشراف: أ. د. قدور إبراهيم عمار، جامعة وهران"١" أحمد بن بلة، دراسات لسانية، مج٢، ع٨، جمادي الثاني١٤٣٩هـ/ مارس ٢٠١٨م.

خامسًا: الرسائل العلمية:

أحمد. ف: التشبيه التمثيلي في الصحيحين: إشراف: الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع البلاغة (١٤٠٥هـ/ ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م/ ١٩٨٦م).

شقرون. ل: قواعد التأويل عند عبد القاهر الجرجاني، رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة مولود معمري- تيزي وزو، كلية الآداب واللغات- قسم اللغة والأدب العربي، ٢٠١٣م، ص١٠٩.